الإنسان ومقوماته

بين المذاهب الإنسانية والحقيقة القرآنية

دكتورة

إنشاد محمد علي عبية

بسم الله الرحمن الرحيم

مدخل :

إذا كان من البدهيات المقررة لدى العقلاء ، أن علم الصانع بما صنع وحديثه عنه من حيث بناؤه وأهدافه ، إنما يكون أولى من علم من سواه ، فإن تطبيق هذه البدهية على الانسان تجعلنا نقرر أن أولى المتحدثين عن الانسان بنية ، وأهدافا ومقاصد وغايات ، انما هو حديث خالق الانسان الله سبحانه وتعالى ، وهذا لايعنى أن الانسان نفسه ليس من حقه أن يقرب هذا المجال .

فله الحق كله أن يقومه ، ولكن الذى ينبغى أن يعلمه أنه لايمكن أن يصل من بحثه لنفسه إلى يقين إذا ترك وشأنه بعيدا عن وحى السماء ، من ثم رأينا كثيرا مما أفرزته عقول البشر فى هذا المجال ماسما به حتى كاد يجعل منه الهاء وماحط من شأنه حتى أوشك أن يسلكه مع أدنى المخلوقات.

حقا إن الانسان من حيث كيانه المادى جسم صغير اذا قيس بغيره من الماديات ذات الكيان المادى الكبير ولكنه مع هذا انتهى فيه العالم الأكبر كما يقول الشاعر العربى ، وماذاك الا لدقة ما انطوى عليه خلقه من أسرار الاله الخالق الأعظم جل وعلا . أن العقل ليحار عندما يقف أمام هذا الاعجاز الظاهر فى خلق الانسان كيف تتوجد فى كيانه تلك الثنائية من مادة وروح غرائز وشهوات وعقل وتفكير وارادة كيف ينطوى علي مطالبا مادية وأشواق روحية؟

كيف تتوارد على نفسه المشاعر والحالات المتقابلة من لذة وألم، وفرح وحزن وانبساط وانقباض ؟

ان المعيار الحقيقى الذى ينبغى أن يتميز فى الحديث عن طبيعة الانسان ومقوماته ، انما يكون فى سماع صوت حديث الحق عنه ، من ثم كانت التصورات البشرية للحديث عنه أما مغرقة فى الروحية ، حتى كادت تجعل منه كائنا مجردا من كل العواطف والرغائب والمطالب المادية . وأما مغرقة فى المادية حتى أوشكت أن تجعل منه كائنا بهيميا ، وفى الدراسة التى نقدمها تقويم لهذين الاتجاهين في معيار القرآن الكريم.

أولا : الانسان ومقوماته فى المذاهب الانسانية:

١- الإنسان فى تصور المذاهب الروحية:

يعنى بالاتجاهات والمذاهب الروحية ، تلك التى لم تعط فى تحليلاتها أهمية للكيان الفيسولوچى للانسان بل راحت تهدم كل مايقوم حياته المادية ، وكيانه الاجتماعى والوجدانى حيث زعمت أنه لايصلح الا بالزهد . والتقشف والتخوشن ، وحرمان النفس من كل مالذ وطاب مما هو مباح وهكذا تكون الحياة الحقيقية التى يصلون فيها الى حالة التشبه بالآلة . وعلى نفس الضرب والمنهج كانت الأفلاطونية التى دعت الانسان الى فهو كل الشهوات فى سبيل الوصول إلى عالم المثل (أى الرجوع العالم الذى منه هبطت واليه تعود).

ولم تقف هذه الأفكار عند هذا المنعطف ، بل انتقلت بعد ذلك الى المسيحية التى بالغت حيث ذهبت الى القول بحلول اللاهوت فى الناسوت) اليس ذلك مستحيل عقلا لاختلاف الطبيعتين وبتأثير

هذه المذاهب من فيثاغوريه وأفلاطونية رهبــانية ظهرت أيضا فكرة تألية الانسان وهنا لابد من اضعاف جميع الفضائل الروحية حتى تخلص النفس الى عالم القدس لأنه فى نظر هذه المذاهب هو (العالم الأصغر) الذى تنعكس فيه كل مظاهر الكمالات.

وهكذا نرى هذه المذاهب تسعى جاهدة لتميت فى الانسان أحساسه بذاته ، وشعوره بكرامته ولاينمو فى ذاته الا الشعور بالضعف والضياع واهانة الغرائز وتحملة مالا طاقة به .

ويمثل هذا التيار عدة مدارس فكرية ودينية متنوعة تشير الى بعضها على سبيل الذكر لا الحصر.

أ- الفيثاغورية :

هذه المدرسة التى أسسها فيثاغورس ، نظرت الى الانسان نظرة غير موضوعية بما كانت ترمى اليه من انكار للعالم الحسى، ومن التقليل من قيمته والحط من شأنه ، وبما ذهبت اليه من حمل النفوس على الهروب من متطلبات وجودها الواقعى، والانفلات من قيودها المادية مايعلق بها من الشرور والآثام الى عالم رحب حيث تكون السعادة التامة ، وحيث تكون الحرية المطلقة(١).

إن تاريخ هذه المدرسة ، يشير الى أن المنتمين اليها ، كانت لهم مقاصد أخلاقية وأهداف دينية، تمثلت هذه الأهداف فى ضبط النفس ومحاسبتها فى كل يوم ، ونستشف ذلك من وضعها لقواعد الزهد

---

(١) انظر د. محمد البهى : الجانب الالهى ص ١٣٦ . ط دار الكاتب العربى - القاهرة سنة ١٩٦٧.

وطقوس العبادات لصوغ حياة الانسان بحيث تنزع الى التشبة بالاله وفي ذلك تحمل الانسان مالايطيق ونكرانها لكل ملكاته واحساسيه.

ومن أقوال فيثاغورس المشهورة فى هذا المقام عندما فتشت عن علة الحياة ، وجدت الموت ، وعندما وجدت الموت عرفت - حينئذ- كيف ينبغى أن أعيش أى أن الذي يريد أن يحيا حياة الهية ينبغى أن يميت نفسه من جميع الأفعال الحسية على قدر الطاقة التى منحها ، فانه - حينئذ - يتهيأ له أن يعيش الحياة الحقيقية(١).

ب- الافلاطونية :

وقد تأثر بهذا الاتجاه المغرق فى الروحية ، " الأفلاطونية" ، هذه المدرسة التى ابتدعت القول بالوجود المطلق أو مايعرف (بالمعانى أو المثل) وهى بالنسبة للمحسوسات كالشبح الساكن للخيال المتحرك، فاذا قلنا كيف نعرفها اذا وجدناها كان الرد: أدركنا تلك المعانى قبل الهبوط الى هذا العالم فنسيناها عند تعلق انفسنا بهذه الأبدان الكثيفة فاذا شرعت النفس فى التعلم انفتح بصرها فتذكرت ما رأته فى حياتها السابقة وهو مايدعى بالتعلم ولكنه فى حقيقة الأمر ليس إلا التذكر ، أى رجوع النفس الى أصلها واتصالها بعالمها الذى هبطت منه واليه تعود (٢) ، وهكذا لايمكن أن يصل الإنسان الى هذا

---

(١) د. ناجى التكريتى : الفلسفة الاخلاقية الافلاطونية عند مفكرى الاسلام - دار الاندلس بيروت - لبنان الطبعة الثانية سنة ١٩٨٢.

(٢) المرجع السابق : ص ٥٠.

العالم ، الا أن يسكن جيشانه المرير ويؤكد ذلك د. بدوى بقوله " يجب عليه أن يميت شهواته ويعذب نفسه عن طريق المجاهدة والرياضة أو يمارس العنت والحرمان من طيبات الحياة[١].

جـ- المسيحية:

وقد سارت على نفس الدرب ، وتأثرت بفكرة وحدة الوجود التى انبثقت من الفيثاغورية إلى الافلاطونية والتى تعنى اندماج الذات الالهية فى الذات الإنسانية " اللاهوت والناسوت " - وأن كان ذلك من المستحيل عقلا لاختلاف الطبيعتين ، وقد تبنت المسيحية هذا المنعرج التائه بأسلوب مغاير إلى حد ما ، وذلك بما يحدث (فيها) أو (لها) ، من تأثير واضح بفكرة (وحدة الوجود) حيث تراها قد أقرت فكرة اندماج الذات الالهية بالذات الانسانية وقضت بحلول (اللاهوت فى الناسوت) [٢].

د- الافلاطونية المحدثة:

وقد دعت إلى هذا المذهب الذى لا طاقة للانسانية الافلاطونية[٣] باعتنائها بالتصوف الاشراقى وانبهارها بما فيه من اضاءات تتراء لمن ترتفع امام عينيه الحجب هروبا من الوجود الأول

---

(١) د. بدوى عبد الرحمن : افلاطون : ص ٢١١ . ط . ثالثة . دار النهضة المصرية . القاهرة سنة ١٩٥٤ .

(٢) د. البهى ، الجانب الالهى . ص ١٠٦.

(٣) د. غسان خالد : أفلوطين رائد الوحدانية (ومنها الفلاسفة العرب) من ص ٢٥٤ - ص ٢٥٦ منشورات بيروت . الطبعة الأولى سنة ١٩٨٣.

حتى يتم الاتصال والالتحام ، فالانسان فى نظر افلوطين - لايسعى كى يكون مجردا من الخطأ ، بل كى يكون الها " والغلبة لاتتم الا ببلوغ الوضع الذى يتمظهر فيه الاله عبر الانسان ليصير هذا الانسان إلها ، أو شبهه" [١]. ، كانت إشراقا الافلوطينية أو " الافلاطونية الحديثة" تدعى بدورها ان لا خلاص لنفس الانسان من قيودها المادية الا بإماته الشهوات الحسية وحرمان الغرائز من تحقيق أهدافها الجسدية العاجلة بالمنع أو الاحباط وهى بذلك تعتبر مناقصة لواقع الانسان ، اذ ليس فى استطاعته أن يكون الها ليس كمثله شيئ بمقتضى مكوناته الجسدية والنفسية والاجتماعية.

وقد بقى هذا التوجه الارتدادى يتفشى ، وينمو ويتكيف داخل المجتمعات الإنسانية وبالخصوص الشرقية منها ويظهر من حين لآخر فى أثواب جديدة كلما وجد أرضية اجتماعية ذات قابلية للإنكماش والانطواء لما يتفشى فيها من أوضاع متردية فكرية كانت أو دينية ، سياسية أو اقتصادية.

هـ- فى بعض صور التصوف الإسلامى :

وقد تسرب الفكر " الحلولى " وغيره الى المجتمعات الاسلامية بموجب التوارث الإجتماعى والتلاقح الثقافى ، فهذا أبو زيد البسطامى [٢] بتعلمه، وحذقه واعجابه بمذهب " الفناء " فى التوحيد

---

(١) نفس المصدر.

(٢) طيفور بن عيسى البسطامى . ولد فى بسطام ، فى غرب خراسان وأخذ التصوف عن رجل هندى اعتنق التصوف اسمه أبو على السندى، وهو الذى علمه الفناء فى التوحيد.

نراه يلزم نفسه أكثر من أي صوفي آخره بأشد مقتضيات التقشف حتى يتسنى له كما قال : التجرد التام عن الأوضاع الانسانية ولقاء الله وجها لوجه(١).

وبالتأمل في أغوار شطحاته نلاحظ أنها لاتنم عن اندماج الذات الإنسانية في الذات الالهية فحسب ، بل انها تكاد تضعه فوق الله(٢).

والحلاج - أيضا - كان يؤمن بنظرية وحدة الوجود أو بنظرية الحلول ، فقد كان يعلن بأن الاهوت والناسوت يمتزجان امتزاج العنبر بالمسك ، والأشعار له شاهدة بذلك يقول:

جبلت روحك في روحي كما ... يجبل العنبر بالمسك الفتق

فاذا مسك شيئ مسني ... فاذا أنت أنا لانفترق (٣)

وبذلك يدخل لأول مرة في تاريخ الثقافة الاسلامية فكرة تأليه الانسان(٤).

---

(١) د. ماجد فخري : تاريخ الفلسفة الإسلامية . ص ٣٣٣ نقله الى العربية د. كمال اليازجي - دار المتحدة للنشر - بيروت ١٧٩٤.

(٢) نفس المرجع السابق ص ٣٣٤.

(٣) د. زكي مبارك : التصوف الاسلامي في الآداب والأخلاق . جـ ١ ص ١٥٨ ، ص ١٥٩ دار الجيل بيروت .

(٤) د. أبو العلا عفيفي : مقدمة فصوص الحكم ، لابن عربي ص ١٦ ط. القاهرة سنة ١٩٤٦.

والسهروردى بحكم كونه قد تأثر بالصابئة وبأفلاطون عبر إشراقات أفلوطين - يرى أن النفس لاتقوى بالفضائل الروحية الا بإضعاف سلطان القوى البدنية بتقليل الطعام وتكثير السهر ، حتى تخلص النفس الى عالم القدس، بل لا يكون الانسان حكيما حتى يتخلص من العلائق البدنية الجسمانية، ويتغلب على العوائق الردية، الظلمانية ، بل يقطع كل صلة بالناس،ويخلع عنه نفسه سلطان البدن، لذلك تخرج النفس إلى مبدئها الروحى فتشرق عليها سوانح الأنوار الالهية ، وتفيض عليها بوارق الاثار الربانية.(١).

أما محيى الدين بن عربى، فأنه يعتبر (اللاهوت) و(الناسوت) مجرد وجهين - لا طبيعتين منفصلتين لحقيقة واحدة ، إذا نظرنا الى صورتها الخارجية سميناها ناسوتا ، واذا نظرنا الى باطنها وحقيقتها سميناها لاهوتا .. فابن عربى يرى : أن الحق الذى يتجلى فى جميع صور الوجود ، يتجلى فى الانسان فى أعلى الصور ، واكملها ، وأن "اللاهوت والناسوت" يظهران فيه ظهورا لا يدانيه فيه موجود آخر .. فالانسان فى اعتبار ابن عربى هو "الكون الجامع" الذى يحوى حقائق الوجود ومراتبه ، هو " العالم الأصغر" الذى انعكست فى مرآة وجوده كل مظاهر الكمالات ..... أو كمالات الحضرة الالهية الاسمائية والصفاتية(٢).

---

(١) د. أحمد يحيى : الفلسفة الأخلاقية : ص ٢١٦ نقلا عن هياكل النور للسهروردى ، وانظر أيضا د. محمد على أبو ريان: أصول الفلسفة الاشراقية عند السهروردى ص ٢٨٦ جـ ١.

(٢) د. أبو العلا عفيفى: فصوص الحكم: ص ٣٦، دار المعرفة - الاسكندرية سنة ١٩٨٧.

وهكذا نجد ابن عربى يعتنق نفس مذهب القائلين بنظرية " وحدة الوجود" أو بالفناء فى التوحيد " أى تصور الانسان كائنا تتجلى فيه اعلا مراتب الكمال. وبذلك تحمله مالا طاقة له به بيولوچيا، ونفسيا، واجتماعيا وقد كان لهذه المذاهب رواج فى المجتمع الاسلامى ، إما فى شكل تصورات فردية ، كما رأينا ، وأما فى شكل جماعة دينية فلسفية سياسية ، غلب على سلوكها الطابع السرى ، مثل : " إخوان الصفا" يقولون فى هذا المقام " إن النفس اذا انتبهت من نوم الغفلة واستيقظت من رقدة الجهالة ، وأبصرت ذاتها ، وعرفت جوهرها وراحت بغربتها فى عالم الأجسام ومحنتها ، وغرقها فى بحر (الهيولى) وأسرها بالشهوات الطبيعية ، وعاينت عالمها واستبان لها فضل نعيمها علي اللذات الجسمانية، وتنسمت بروح عالمها وريحانها ، واشتاقت الى هناك ومالت الى الكون فى ذلك العالم ، ومقتت الكون مع الاجساد ، وزهدت فى نعيم الدنيا وتمنت الموت الذى هو مفارقة الجسد والخروج من ظلمة الأجساد .. تحيا حياة ابدية سعيدة"(١).

ان هذه النظرة التشاؤمية التى دعت الانسان الى الهروب من الواقع المادى أقل مايقال عنها إنها جانبية نظرت الى الوجود بعين واحدة . ولم تنظر الى مافىَ هذا الوجود من خير ، وجمال ، وحق ، يعطى الإنسان الاحساس بكرامته وذاتيته ، وان له وزنا وقيمة فى هذا الوجود، وأن لوجوده غاية، ولحياته رسالة .وان وجوه ليس عبثا . فالوجود بما فيه من جمال وحق ، انما يكون باعتدال مطالب الانسان.

---

(١) رسائل إخوان الصفا : العلوم الناموسية الالهية والشرعية الدينية جـ ٤ ص ١٨٥ دار بيروت سنة ١٩٦٥، وانظر أيضا: ديبور، تاريخ الفلسفة فى الاسلام ص ١٧٤ ط . بيروت سنة ١٩٨١.

وهذه النظرة التشاؤمية ليس فيها إلا هدم اسمى المعانى الفطرية التى خلقها الله سبحانه وتعالى فى الانسان. ان حرمان النفس من رغباتها ودوافعها ومقت الكون والبعد عن كل ماهو مطلب النفس، أمور لاتفق مع طبيعة الانسان المعتدلة . وبهذه النظرة تصبح الحياة لاروح فيها ، ولاحركة ولا أمل ولاغاية ولاواجب ، ولاحب ازاء المجتمع وافراده .

فهي تنظر الى الوجود على أنه أسود مظلم ، فتمنى الموت ، وقهر الاجساد ، وحرمان النفس من رغبات دوافعها ، كلها أمور قهرية ، ما أنزل الله بها من سلطان.

فهى تلزم النفس لاتستطيع وتحملهما لاتطيق . وتأذن بخراب العمران ، وتعمل على هدم عالم واقعى كائن ، وهو مايتعارض مع الحكمة الالهية التى من أجلها خلق الكون ، ووجد الإنسان ، علما بأن الانتباه من هذه الغفلة ، والاستيقاظ من قدرة الجهالة لايقتضيان تحريم الشهوات كليا. ولايستلزمان قهر الملكات بالمنع أو الاحباط.

والجدير بالذكر أن هذا التوجيه والالزام ، قد انتشر وتكاثر بصورة كثيرة داخل المجتمعات الاسلامية فعمل على تأخرها ، وعدم اللحاق بركب الحضارة والتقدم.

إن التاريخ قد اطلعنا على حقيقة لاتتبدل ولاتتخلف ، وهى أن قيام الحضارات وانهيارها ، انما يرتبط بأسبابه الظاهرة والخفية ، والقوة الكامنة والظاهرة فى الانسان، عندما تتعادل مطالبه، تعد من أقوى العوامل فى تخلفه وانحطاطه[1].

---

(١) قارن : ابن خلدون : المقدمة ، فصل قيام العمران ص ١٧٥ وأيضا : مالك بن بنى : شروط النهضة ص ١٤٠.

٢- الانسان فى تصور المذاهب المادية:

فيما سبق عرضنا للتيار الروحي - وهو كما رأينا - قد أهدر فى الإنسان كل شعوره بالحياة المادية ، واراد ان يصنع منه إلها ، وحمله مالاطاقة له به ، كل ذلك على حساب فطرته التى هو عليها ، وعلى العكس من ذلك تماما ، نرى التيار المادى، فهو يسعى الى تجريد " الانسان " من القيم الروحية وتحاول مذاهب هذا التيار ، بكل قواها أن تجعله آلة يقهر الطبيعة ويسخرها لمنافعة فيفجر الصخر ويحول مسير النهر، ويغوص فى أعماق البحار، ويزاحم الكواكب فى فضائها . وكأنها تردد المقولة : أن الانسان غدا سيصنع نفسه.

ولم يتوقف الأمر عند هذا الحد ، بل إن فعالية الظروف المناخية، التى تتحكم فى نمو أعضائه الجسمانية تحكما قويا ، قد يسمح بالاستفادة منها أو بترها.

فالغلبة تكون للانسان المزود بغرائز وأعضاء تجعله أقدر على البقاء . وهذه المذاهب هى :

ا- دارون :

ومن بين من يمثل هذا الاتجاه " الدارونية" [١] المعبرة عن "نظرية التطور" المشهورة التى كان قد دعا اليها لامارك LAMARCK [٢]،

---

(١) نسبة الى دارون ١٨٠٩ - ١٨٨٢.

(٢) لامارك : ١٧٤٨ -١٨٢٣ . ، قال : بالتطور على أنه لم يذهب الى مطلق التطور، لقد سلم لامارك فعلا بالتوالد الذاتى ، لكن لابمعنى أن المادة تتجه بذاتها الى الحياة ، بل بمعنى أن غازات لطيفة كالحرارة والكهرباء قد تنقل غير الحى الى الحياة بكيفية متقطعة،وفى نطاق=

والقائلة : بأن الأنواع الحالية على اختلاف أصنافها ، توجد بينها وشائج قربى ، وعلاقات نسبية ، لأنها تعود الى أصل واحد أو الى بضعة أصول ، نمت وترعرعت وتكاثرت، وتنوعت في زمن مديد يقتضي "قانون الانتخاب الطبيعي " أو وفق " قانون تنازع البقاء ، وبقاء الأصلح ، أو الأقدر على التكيف.

فقد صرح"داروين" بأن الفرق بين الانسان والحيوان فرق فى الكم والدرجة فقط، وأن المسافة بين القوى الفكرية لحيوان من ادنى الفقريات- أو القوي الفكرية لقرد من القردة العليا - أكبر من المسافة بين القوى الفكرية فى القرد وبينها فى الانسان"(١)... ثم يعلن أنه يفضل أن يكون منحدرا من القرد الذى يخاطر بحياته لينقذ حارسه،على أن يكون منحدرا من الانسان المتوحش الذى يلتذ بتعذيب عدوه، ويقتل أولاده دون أن يشعر بوخز ضمير، ويعامل نساءه معاملة

= ضيق، فالحياة فى الأصل من خلق الله، أوجد الله أصولا طبيعية أو نماذج ينتظم كل منها من عدد معين من الأعضاء المعينة مركبة تركيبا معينا" يوسف كرم : تاريخ الفلسفة الحديثة ص ٣٠٠.

(١) يوسف كرم : تاريخ الفلسفة الحديثة : ص ٣٥٣ وذكر د . بدوى فى موسوعة الفلسفة جـ ١ / ٤٧٠. أن داروين لم يكن مبتكرا نظرية التطور المشهورة ، وأنما تلقاها من لامارك من الناحية البيولوجية ، ومن هربرت سبنسر من ناحية تحديد قانون التطور وأخذ منه كلمة التطور نفسها ومن مالتس (Malthus) الذى ذهب إلى أن وسائل البقاء تتناقص كلما توالد الحيوان.

الرقيق ، وهو نفسه مسترق لأشنع الخرافات[١] ويذهب "داروين" الى أن ملكات الانسان العقلية وغرائزه وتصوراته الأخلاقية والدينية هى نتاج تغيرات بيولوچية مفيدة انتقلت ، ورسخت فى النوع الإنسانى بواسطة الوراثة، وقد علق د. بدوى على هذا بقوله : أن هذه الآراء تلقفتها العامة مثل " أرنست هيكل" وصاغوها فى عبارة مثيرة هى: " أن الانسان ينحدر من القرد" أو بعبارة مبتذلة : " الانسان أصله قرد"[٢].

وسواء قبلت أم لا ، فالمهم أن هذه النظرية وجدت رواجا بين الباحثين ، ولكن الأهم من ذلك هو انهيارها أمام ما أثبته بعض علماء الأحياء المعاصرين ، من أنه إحتمال لتسلسل الانسان من القردة كما نعرفها ، لأن القردة منفردة بتركيب خاص يستحيل تشريحيا أن يتطور منه تركيب الانسان.

ومن الفوارق التى أكدوا عليها : أن الأصوات التى تصدر من القردة والقردة العليا تختلف تماما عن اللغة الانسانية ، فقد لاحظوا: أن الأنسجة العصبية فى مناطق معينة من اللحاء المخى فى الانسان هى بالغة الدقة ، وهى التى تمكن من صدور الكلام : من ايقاع ، وتنغيم، وتسمح بالانتقال من النطق بحرف أو لفظ الى حرف أو لفظ آخر بفجوة زمنية ، على حين أن القردة ، والقردة العليا محرومة

---

(١) يوسف كرم : تاريخ الفلسفة الحديثة : ص ٣٥٤.

(٢) د. عبد الرحمن بدوى : موسوعة الفلسفة جـ ١/٤٧٤ . المؤسسة العربية للنشر بيروت الطبعة الأولى ، سنة ١٩٨٤.

من هذه الخصائص ، بالاضافة الى أن اللغة تقوم على الرمزية ، بمعنى أن بعض مفرداتها ، وعلاماتها تدل على تصورات مجردة ، لا ترتبط بموضوعات حية قريبة ، ومن هنا لزم أن تكون هذه اللغة مختلفة عن أصوات الحيوانات اختلافا فى النوع لا فى الدرجة(١).

وقد علق الاستاذ يوسف كرم على نظرية " داروين" بقوله : "وقد نسلم بالتطور ثم ترانا مضطرين الى اعتبار الإنسان نوعا قائما بذاته بسبب مايختص به من علم، ولغة، وفن، وصناعة، وخلق، ودين، وهى مظاهر للعقل لانظير لها ، ولاأصل لها فى سائر الحيوان ، وقد نسلم بالتطور ثم ترانا مضطرين الى الاقرار بوجود للمادة موجه لها ، لقصور المادة عن تنظيم نفسها ، ولكن من العلماء والفلاسفة من يفكرون كالعامة بالمخيلة دون العقل فيسيغون المحالات" (٢).

وعلى كل حال فإن نظرية " داروين" لم تسلم من النقد ، بل انها انهارت بما اثبته العلماء والباحثون ومنهم الاستاذ ابراهيم حورانى (٣) الذى آثر تأخير رأيه حتى يسوق بين أيدينا آراء علماء

---

(١) فهمى زيدان : فى النفس والجسم : ص ١٥.

(٢) يوسف كرم: تاريخ الفلسفة الحديثة : ص ٣٥٥.

(٣) هو عالم لغوى مطلع على المباحث العلمية - ألف فى الرد على مذهب دارون رسالة "مناهج الحكماء فى نفى النشؤ والارتقاء " ثم اتبعها برسالة " الحق اليقين فى الرد على باطل داروين " وطبعها ببيروت سنة ١٨٨٦ ، ردا على مناقشة الدكتور " شبلى شميل" لرسالته الأولى ، فصب حملته الكبرى على موطن الضعف فى المذهب وهو افتاره الى الدليل القاطع وتعويله على الشواهد التى توحى بالرأى ، ولاتستأصل الشكوك أو تسكت المعترض المطالب بدليل لايضعفه الاحتمال .

الطبيعة المخالفين لداروين فى القول بتحول الانسان عن غيره من الحيوان ، قال : " أن العلماء لم يثبتوا مذهب دارون ، وكذلك نفوه وطعنوا فيه مع علمهم أنه ظل يبحث فيه عشرين سنة ، منهم العلامة "ونشل" مع أنه من أشد الناس ميلا الى القول بالارتقاء بفعل الله .. ومنهم العلامة " والاس" قال ماخلاصته " إن الارتقاء بالانتخاب الطبيعى لايصدق على الانسان ولابد من القول بخلقه رأسا ... ومنهم الاستاذ " فرخو" قال : أنه يتبين لنا من الواقع أن بين الانسان والقرد فرقا بعيدا ، فلا يمكننا أن نحكم بأن الانسان سلالة قرد أو غيره من البهائم ولايحسن أن نتفوه بذلك.. ومنهم " ميفرت" قال بعد أن نظر فى حقائق كثير من الأحياء: أن مذهب دارون لايمكن تأييده وأنه رأى من آراء الصبيان ... ومنهم العلامة "فون بسكوف" قال بعد أن درس هو وفرخو تشزيح المقابلة بين الانسان والقرد : ان الفرق بين البشر والقرد أصلى "ومنهم بعد أن درس هو وفرخو تشريح المقابلة بين الانسان والقرد : ان الفرق بين البشر والقرد أصلى "ومنهم العلامة " "أغا سير" قال فى رسالة فى أصل الإنسان تليت فى ندوة العلم الفكتورية ماخلاصته : أن مذهب داروين خطأ علمي باطل فى الواقع، وأسلوبه ليس من أساليب العلم فى شيئ ولا طائل تحته ... "ومنهم العلامة" هكسلى " وهو من اللاأدرية وصديق لداروين ، قال: إنه بموجب مالنا من البينات لم يتبرهن قط أن نوعا من النبات أو الحيوان نشأ بالإنتخاب الطبيعى أو الإنتخاب الصناعى ، ومنهم العلامة "تندل" وهو كهكسلى قال : انه لاريب فى أن الذين يعتقدون الارتقاء يجهلون أنه نتيجة مقدمات لم يسلم بها ، ومن المحقق عندى انه لابد من تغيير مذهب دارون".

فهذا آراء علماء الطبيعة المخالفين لدارون والتى جمعها الاستاذ حورانى. أما رزيه ، فيقول : أن علة هذا التشابه" بساطة التكوين وقصر النظر .. بدليل أن التباين يعظم على توالى اقترابها من كمال التكوين فلا ينشأ من بيوض الانسان أو أجنته سوى أناس، ولاينشأ من بذرة الوز إلا الوزة " (١).

ومما سبق يتضح لنا أن نظرية داروين قد حصرت الإنسان فى مجموعة من العوامل المادية والبيولوچية المحيطة به وجردته من كل روح معنوية ، ومن كل طاقة ادراكية مبدعة ، متناسية تماما مع واقع الانسان التاريخى والحضارى على مر العصور. وأن طبيعته الفطرية التى تميز بها تقوده الى البحث الدائم عن كل ماهو جديد. ومهما سجل التاريخ فى حركة الإنسان من مظاهر التوحش ومن بوادر التأثر بالخرافات أو الأساطير ، ومن حوادث الانحراف والفساد والطغيان فانه يبقى الكائن المفضل ذا النطق ، وذا اللغة ، وذا التفكير، وذا التخيل والإبداع وذو الاجتماع، وذا الثقافة، وذا الرقى، وذا الدين والاخلاق ولهذه السمات كلها مجتمعة يبقى الانسان الكائن المفضل عن بقية المخلوقات ، كما سيظهر هذا بصورة أكثر وضوحا عند حديثنا عن الانسان فى القرآن الكريم.

---

(١) نقلا عن : عباس العقاد : فى كتاب الانسان فى القرآن الكريم .ص ١٠٨، ١٠٩ - دار الهلال سنة ١٩٧١.

ب- الماركسية:

ومما ينتسب للتيار المادى مايعرف " بالمادية التاريخية" والتى نراها نظرت الى الانسان على أنه جسم مادى صرف ، وألغت كل أشواقه الروحية، فأصبحت المحسوسات هى أساس التعامل فى مجال الفكر بل إن نمو الحياة الإنسانية سواء من خلال الفرد أو الجماعة، أنما يتوقف على مدى الأخذ والعطاء فى نوع الإنتاج ، ومن هذا المنطلق تتطور مجالات الحياة المختلفة.

وان مؤسس الفلسفة الشيوعية المعاصرة "كارل ماركس" ١٨١٨-١٨٨٣" فى تحليله لأبعاد المادية التاريخية، لم ينظر الى الإنسان الا من حيث كونه تركيبه مادية بحته ، فهو يرى أن المادة هى كل الموجودات وأن المظاهر الموجودة على إختلافها ، نتيجة تطور متصل للقوى المادية ، وأن نمو الحياة الانسانية ، فردية كانت أو اجتماعية، يتوقف كله على الظروف المادية والاقتصادية، وأن نوع الانتاج فى الحياة المادية شرط تطور الحياة الاجتماعية والسياسية والعقلية على العموم ، فليس وجد ان الناس هو الذى يعين وجودهم وانما هو وجودهم الاجتماعي الذى يعين وجدانهم" (١) . ولتشكيل هذه الحياة على الأرض تشكيلا انسانيا خالصا، لابد أن يكف الإنسان عن النظر الى الوحدة والسعادة والحب على أنها مثل عليا بعيدة المنال، أو لن تتحقق على الأرض فى حياة أخري فى السماء ، لأن الدين فى رأية تحقيق خيالى لما هية الانسان ، لأن الكائن الانسانى

---

(١) د. يوسف كرم : تاريخ الفلسفة الحديثة ص ٣٥٥.

ليست له حقيقة واقعية" - كما أن الدين " زفرة الخليقة المقهورة ، وهو الشعوب ، لهذا يجب أن يتحرر الإنسان من مغايرة الدين له. فيقول : " أن ازالة الدين ، بوصفه السعادة الوهمية للشعب ، هى الشرط لتحقيق سعادته الحقيقية ومطالبته بالتخلى عن الأوهام المتعلقة بأحواله هى المطالبة بالتخلى عن أحوال تحتاج الى الأوهام"(١).

ثم يتحدث بعد ذلك عن كيفية تحقيق الانسان لذاته فيقول : "لايقيم تحقيقه لذاته وكماله على أى شكل من المجردات، مثل الألوهية أو الاديولوچيا ، وانما يحقق نفسه بالاتحاد مع العالم بواسطة العمل الخلاق والنشاط البناء والعلاقات الاجتماعية العينية المنسجمة "وعلى هذا النحو يوحد العمل الخلاق بين الانسان وبين ذاته ، وبينه وبين سائر الإنسانية. ويمكنه من تحقيق امكانياته العقلية والعاطفية والتواصل العينى بينه وبين سائر بنى جنسه"(٢).

ونتبين من ذلك : أن كارل ماركس فى تحليله لأبعاد "المادية التاريخية" نظر الى الإنسان على أنه جسم مادي صرف فقد غلبت المادة على منازع تفكيره. بعد أن أصبحت المحسوسات هى أساس التعامل في مجال الفكر. بل إن نمو الحياة الانسانية سواء من خلال الفرد أو الجماعة، إنما يتوقف على مدى الأخذ والعطاء فى نوع الانتاج ومن هذا المنطلق تتطور الحياة الاجتماعية والسياسية

---

(١) د. بدوى : الموسوعة الفلسفية جـ ٢/ ٤٢٠ ط . الأولى. المؤسسة العربية للدراسات والنشر . بيروت سنة ١٩٨٤.

(٢) المرجع السابق : نفس الصفحة.

والعقلية. وهكذا يحكم ماركس المادة فتصبح هى المتحكمة فى كل تصرفات الانسان وأعماله. وهنا ينسى واقع الانسان. وان هذه المادة مهما علا شأنها فى نظر ماركس فهى صماء ، عرجاء لا ارادة لها تنظمها أو تغير من هيكلها الا بالفكر الدؤوب للإنسان ، فإما أن يوجهها الى مافيه صلاح المجتمع وتقدمه ، واما إلى أتلاف حياة المجتمع.

ثم نحن إذا نظرنا الى "المادية الجدلية أو العملية" نجد أن كل من وقعوا تحت براثن هذا المذهب أخلوا قلوبهم من الدين ، وحجبوا أبصارهم عن التطلع الى معبود ، غير المادة . اعتقادا منهم أن الدين هو " أفيون الشعوب " والمخدر الذى يذهب بعقولها ، وينسيها همومها التى تعانيها فى الحياة ، وفى نظرهم أن القوانين والقواعد والأخلاق ماهى إلا أوهام بورجوازيه، يجب التخلص منها ، فالايمان بحياة آخرة، فيها حساب وجزاء وجنة ونار ، جميعها من خرافات الأولين وأساطيرهم ، بل وتلفيقات أهل المكر والخديعة.

وهكذا فقد أدى هذا التأليه المادى الى انحدار الانسان الى أدنى الدرجات المادية والحيوانية ، ففى المادية أصبحت المحسوسات هى أساس التعامل فى مجال الفكر ، كما هى أساس الأخذ والعطاء فى مناحى النشاط الانسانى كله ، فلا يدخل عقله شيئا لاتلمسه حواسه ، بل لابد من تحقيق وجوده محسوسا ، ملموسا ، منظورا.

أما الحيوانية، فقد انحدرت بالانسان الى أدنى درجات الحيوانية. فقد دعت الى التحرر من كل قيد دينى أو خلقى أو اجتماعى . حتى ينطلق الإنسان على هواه ، وأن يأخذ من دنياه كل

ماهو متاح له . دون نظر الى شئ وراء هذه الحياة الدنيا مما يدعو اليه الدين من حياة آخرة لم يرها أحد ، ولم يضع أحد فى يده شيئا منها ، وحينئذ تكون الحياة فى يد الانسان "الأقوى" وهكذا تكون مسيرة الانسان فى كل الظروف وتحت جميع الأوضاه الاقتصادية والإجتماعية. وهذا ما أكد عليه زعماء هذا المذهب "ماركس" و " انجلز " و "لينين" و "ستالين".

ولم يتوقف الأمر عند ذلك بل اعتقدت أنها اذا أشبعت الجسم صار الانسان فى غنى عن الدين والروح والوجدان ولم تنظر إلى الانسان نظرة موضوعية واقعية ، لأنها لو فعلت ذلك لوجدت أن محتوى الدين بما فى ذلك المسيحية وبما فى زادها من سلبية نتيجة الإنحراف الذى لابسها بمفعول الظروف الاجتماعية، وملاحقات المراحل الزمنية لم يكن سببا فى ايجاد الأوضاع الجائزة . بل أن غياب الروح الدينية هو الذى زاد من غلو غرائز البورجوازية ونمى شهواتها . ولو كانت واقعية لقامت بحرب ضد من انحرف عن القيم التي تنادى بها الاديان من الرحمة والتعاون والحب وكافة الفضائل .

ويؤكد هذا الواقع قول الفيلسوف الألمانى " نيتشه" : ان الرحمة والتعاون والحب، وكافة الفضائل التى تنادى بها المسيحية هى مجموعة من الدجل والخرافات، تستهدف رعاية الغوغاء، والدهماء والقطعان، وهؤلاء جميعا هم فقراء، ومرضى وضعفاء يعوقون التطور الإنسانى، على حين أنه يجب أن نخلص لنوعنا البشرى بأن نبقى

على الأقوياء فى الذهن، والجسم، والروح، ونعمل على افناء الآخرين، حتى نحصل فى النهاية على الرجل " السوبرمان" (١).

وهكذا لانجد فى مذهب المادية ولا فى قاموسها اللغوى، ولا فى رصيد مشاعرها شيئا اسمه الرحمة أو العطف أو الاحسان ، بل أنها تنكر على الديانات جميعها هذه المشاعر الانسانية، المتأصلة فى النفس منذ الفطرة، والتى أثبتتها الدراسات الانسانية والتاريخية على مر العصور. لأنها فى نظرها أمراض اجتماعية خبيثة دخلت على عقل الانسان وسكنت فى مشاعره عن طريق الخداع والتضليل. ولن تسلم حياته إلا بتحرير أفكاره ونوازعه من هذه المشاعر. وهى - بهذا- كانت واهمة لأن الحاجة إلى الدين وللمشاعر الانسانية متأصلة فى الفطرة الانسانية كما أشرنا الى ذلك آنفا.

ومن العجيب أن تتبنى (الشيوعية) فكرة العداله، والحال أن العدالة ليست معروفة من الطبيعة الصماء وليس الناس متساوين قوة ونشاطا وذكاء ، والنتيجة المنطقية للمادة أن يعتبر " الإنسان" كائنا اقتصاديا فحسب قانونية الطمع ، والمنفعة ، وتنازع البقاء بالأسلحة الطبيعية ، ولا عدالة الا فى مذهب يعترف بماهية انسانية مشتركة بين

---

(١) السوبرمان : الرجل المنتخب من سلالات الانسانية المتازة ، وهو بهذا يكون على رأس كلها، عقلا وحكمة... ثم منه يتوالد العقلاء والحكماء .. هكذا يقول المادى- المراجع د. مصطفى غالب فى سبيل موسوعة فلسفية ص ١٠٥ ، قصة الفلسفة (ديونت).

أفراد النوع، وبحياة انسانية أرفع من الحياة المادية وهذان ركنان لايعترف بهما المذهب المادى " [١] ويتضح من هذا أن " الماركسية" وأن كانت تقاوم " الميتافيزيقا " وتحاربها ، فانها ترتكز عليها ، وتدعى الحقيقة ولاتقدمها الا مؤقتة ، وتنفى القيم السائدة، ولكنها تثبت قيمها التى لم تولد بعد[٢]، وتتمسك بالواقعية التى لم تسمح المدن الفاضلة والجمهوريات المثالية بالتعرض لها لبعدها المطلق عن الواقع.

جـ- الوجودية :

ويمثل هذا التيار المادى الجارف أيضا "الوجودية" المعاصرة التى تبناها سارتر: (١٩٠٥-١٩٨٤) والتى يعتبرها نزعة انسانية خالصة ، لأنها فى نظره الايديولوجية الوحيدة التي تعمل على تأكيد الوجود الانسانى فى الحياة، وتحرص على اعطاء الانسان المكانة اللائقة به، وتهدف إلى جعله مسؤولية كاملة عن ماهيته وتصوراته ، وأفعاله، وكل مايتعلق بوجوده المستقبلى.

واذا كان الشرات الفلسفى للانسانية الذى كان سائدا ، ومألوفا الى حد " الكوجيتو الديكاتى" معتمدا ومرتكزا على مبدأ : " أن الماهية تسبق الوجود " بمعنى : أن الانسان وجد تطورا وغاية، فى علم

---

(١) يوسف كرم : تاريخ الفلسفة الحديثة : ص ٣٨٨. دار المعارف بمصر سنة ١٩٥٧.

(٢) انظر : الربيع ميمون : نظرية القيم فى الفكر المعاصر : ص٢٠٧ ط . الشركة الوطنية للنشر والتوزيع - الجزائر سنة ١٩٨٢.

وتصور القوة المدبرة الصانعة قبل أن يوجد وجوده الفعلى ، نرى "سارتر" يقلب المبدأ من أساسه ، ويحول اتجاهه فهو يقول : "أن الوجود يسبق الماهية " بمعنى أن الانسان يوجد أولا ، ثم توجد الماهية ثانيا ، لأن الوجود مشروع من أجل تحديد الماهية، والانسان يوجد ، ثم بعد وجوده يحدد ماهيته بمحض حريته... وهو يحاول دائما أن يحقق ذاته عن طريق امكانياته " (١).

ولما كان الانسان لايوجد الا بقدر مايحقق ذاته ، ولما كان الإنسان شيئا غير مجموع أفعاله ، كانت الوجودية من هذا الوجه ، ليست استسلاما ، بل بالعكس تماما ، وليس ثم مذهب أكثر منها تفاؤلا لأن مصير الانسان بين يديه ، وهى - أيضا- ليست مذهبا يدعو الى تثبيط الهمه ، لأنها تدعو الى الفعل ، وتقول : " أن ليس ثم أمل الا فى الفعل ، والامر الوحيد الذى يسمح للإنسان بالحياة هو الفعل،والوجودية هى النظرة الوحيدة التي تعطى الإنسان الكرامة(٢).

ولما كان الوجود -فى نظر الوجودية - سابقا على " الماهية" لم يبق فى الانسان شيئ يعين سلوكه، ويحد من حريته ، بل كان حرا كل الحرية، يعمل مايشاء ، ولا يتقيد بأى شيئ ، فما الإنسان إلا

---

(١) انظر : مصطفى غالب : فى سبيل موسوعة فلسفية :" ص ٢٥ - ص ٢٦ .

(٢) انظر : بدوى : موسوعة الفلسفة : ص ٥٦٧.

مايصنع نفسه ، ومايريد نفسه ، ومايتصور نفسه[١] ولا مشروع غير نفسه ، وهو وحده خالق القيم ، وباعث الحياة ، وفى كل مايختار من الاعمال" [٢].

وبعد هذا العرض يتبين لنا : أن الوجودية المادية تقوم على دعوة خادعة تغرر بكثير من الناس، وهى أن يجد الانسان نفسه ... ومعنى وجود الانسان نفسه - فى هذا المذهب - أن يتحلل الانسان من كل مايربطه بالمجتمع من نظم وقواعد، وقوانين، وعادات وتقاليد، وأن يطلق نفسه على هواها ، تأخذ كل مايصادفها من غير وعى ، أو تفكير أو تقدير ، وسيان عند الوجودى أن يأخذ كل شيئ، أولا يأخذ شيئا أبدا ، وسيان عنده الشيئ ونقيضه ، فلا خير ولاشر ولانوروﻻ ظلام ، ولاهدى ولاضلال.

لأن الوقوف عند اختيار شيئ من الأشياء، قيد يقيده ازاء هذا الشيئ وفى هذا جور وجوده ، اذا هو خضع لشيئ ما ، أو تقيد بشيئ ما. وبهذا سلخ هذا المذهب ، اصحابه من المعانى الروحية، وحرمهم هذا الفيض الذى ترتوى منه النفوس والذى يجيشها من عالم الغيب ... حيث يظل المؤمن على صلة بالوجود ، مترقبا مايطلع عليه من وراء ستره .

---

(١) انظر : يوسف كرم : تاريخ الفلسفة الحديثة : ص ٤٤٠ ، ص ٤٤١.

(٢) انظر : مصطفى غالب : فى سبيل موسوعة فلسفية : ص ٩٣ . دار ومكتبة الهلال بيروت . سنة ١٩٨٣.

وإذا نظرنا اليها من حيث كونها تنفى أن يكون لوجود الانسان ماهية قبلية نراها بهذا، تنكر كل مالا يؤثر فى حياة الفرد تأثيرا حاضرا ومباشرا ، لأن الإنسان - فى تصورها - لايحيا حياتين ، وانما هى حياة واحدة ، لأنها هى التى يعرفها الانسان الوجودى معرفة حقيقية، أما ماوراء هذه الحياة ، فهى- فى تصوره - أوهام وظنون ، لايصح أن يشغل المرء نفسه بها .

أن هذه الماهية التى يصنعها الانسان، والتى أكد "سارتر" أن يمنحها معني وقيمة ، وأهمية تنم عن تناقض صريح ، اذ كيف يستساغ أن يكون لوجود الانسان مغزى فى عالم دهرى خلق صدفة، ومن غير تدخل تدبيرى فعدم وجود ماهية قبلية يؤدى - حتما- الى عدم وجود غاية تسعى اليها البشرية، وبالتالى الى مصير ميتافيزيقى مجهول.

نقد هذه المذاهب

على الرغم من أنى لم أستطع أن أكبح جماح القلم وانا أصور هذه المذاهب ، فقد عقبت علي كل منها حين تعرضت لها بالتوضيح، الا أنى هنا أجمل ماسبق أن لاحظته وأضيف جديدا فأقول : إن المدقق فيما عرضناه سابقا يلاحظ أن كلا من التيارين الروحى والمادى قد أشبع جانبا على حساب الآخر. ولم يعط الصورة الحقيقية للانسان المتوازن. لأن كلا منهما حاول أن يوجه عنايته الي جانب معين. فأحياه على حساب أقامة الجانب الآخر . وفى هذا أهدار للواقع ومجانبة للصواب . وعلى ذلك تكون النتيجة واحدة ، ذلك لأن التيار الروحى حاصلة اما الهروب من واقع الحياة ومستلزماتها .

والاعراض عن المشاركة الفعلية فى اقامة العمران ومايتطلبه من تنقل وتحرك ومخالطة بالمجتمع ، إذ أن العزوف عن مقتضيات الحياة يعنى - لزوما - عدم استمرارية الحياة ، وعدم تحقيق مايترتب عليها من مهمة عمرانية ، وهذا يعنى : أن وجود الانسان فى الحياة لم يكن لحكمة أو غاية . واما الهروب من ثقل المطالب الروحية، والتردى فى مهاوى المادية المتطرفة ، التى تخضع لقوة " الضغط" و " الاكراه" و "نكران الواقع " وهو مايفسر لنا ظهور الحملات الهائجية التى شنت علي السطلة الكنيسة، وعلى الاتجاهات الدينية، فالموجة الالحادية التى ظهرت فى أوربا لو نظرنا الى ظهورها بموضوعية لوجدناها ثورة على الرهبانية المبتدعة التى استبعدت ، واضطهدت باسم الدين، فالدعوة الي اماتة الأله انما هى - فى الواقع الفعلى - أماتة لمن اضطهد، واستبد ، كما أن هذا الاتجاه الروحى قد أدى إلى ظهور النزعات اللادينية فى الغرب واستفحالها . أما فى الشرق فقد انتشرت بسبب التقليد اللاواعى والتبعية الثقافية طبق الفكرة القائلة: أن مساوئ الغالب تعد محاسن فى نظر المغلوب، حسب ما أشار اليه ابن خلدون . هذا من وجه، ومن وجه آخر : ماتردد فى مجتمعنا من تواكل سلبى وتخلف عام بسببه ضعف الروح الاسلامية الواعية التى تساعد الانسان على القيام بالمهمة الروحية والعمرانية معا.

وأما الماديون فقد نظروا الى الانسان على أنه مجرد " حيوان " من فصيلة راقية ليس له قبل حياته وجود ، وليس بعد موته إمتداد. فليس ماذهب اليه دارون أو كارل ماركس أو فرويد وغيرهم من الماديين بأفضل من هذه النظرة الى الانسان. انه عندهم مخلوق من

طين الأرض منها خلق واليها يعود. فهذه هى طبيعته أن يظل يدب على هذه الأرض ، مع الدواب والحيوانات . فلا يعلو ولايسمو .

فأى تصور أقسى على الانسان من هذا التصور إن يرى نفسه حيوانا هابطا لايعلو أكثر من موقع قدميه . والحقيقة أن هذا التصوير لم يعرف للانسان هدفا لأن الهدف يقتضي أن يكون للإنسان وجودا حقيقا ، وهم ينكرون أنه له وجودا حقيقيا . فليس للإنسان في نظرهم الا الكدح وراء العيش ابتغاء تحسينه.

فاذا اطلقت المادية للإنسان كل عنان، وأخلته من كل قيد يقيد المرء به فى نفسه، وما فى مجتمعه من عادات وتقاليد، ومعتقدات، فانها لم تفعل أكثر من أنها عرت الانسان من إنسانيته، ودفعت به الى عالم الحيوانات، لايرتفع نظره الى أكثر من قدميه، ولا يعيش الا للحظته التى هو فيها ، وليكن بعد ذلك مايكون ، وهذا مالا يقبله عقل عاقل ، ولايرضي به إنسان فيه بقية من الإنسانية، بل هى دعوة صريحة الى تجريد الانسان من كل القيم العليا والى نقض كل العقود الاجتماعية ، وضرب كل الحقوق الأساسية، ودعوة إلى نشر الفساد الخلقى، الشديد الوطأة ، البعيد القرار، الذى عم المجتمعات جميعا ، فأن جرائم الفوضويين، وانتحار الأسر بأجمعها ، والوساوس الخرافية الأخذة فى الانتشار بين الناس، كل هذا ناشئ من جراء هذه المادية . وأنه ليكفى أن نأتى هنا بشاهد ممن عاشوا بين العالم المادى، ورأى الشقاء الذى يعيش فيه أهل هذا العالم من أغنياء وفقراء على السواء..

فهذا العالم الامريكى " فيبرنس جيفارت" يتحدث عن مجتمعه الذى تتحكم فيه المادية ، فيقول : " لايجوز لنا أن نخجل من

الاعتراف بما وقعنا فيه من الانحطاط لأننا رضينا به ، وأصبحت عقولنا المتشبعة بالأثرة لا هم لها إلا أغراضها الذاتية.... اليس حظنا اليوم قد استحال لجميع الثروة بلا مبالاة بوجوه جمعها ، والحصول علي المجد بطريق الاغتيال لا الكسب ، والغلظة، وعدم الاهتمام بالقوانين والواجبات"[١]. ذلك هو عالم الماديين ، عالم تتحرك فيه أشباح بلا أرواح.

ثانيا: الإنسان ومقوماته فى القرآن الكريم

الانسان لغة :من أنس، والانس بفتحتين ، جماعة من الناس ، والأنيس الذى يستأنس به [٢] ، والانسان من الناس اسم جنس يقع على الذكر والأنثى ، وتشتق من كلمة الانسان صفة (الانسانية) ، وهى صفة اذا استخدمت فانها تدل على ما اختص به الانسان من الصفات ، وأكثر ماتستخدم فى العربية للمحامد مثل الجود والكرم.

ومادة الانسان فى القرآن غير مادة البشر ، حيث تعنى مادة البشر الآدمية المادية التي تأكل الطعام ، وتمشى فى الأسواق ، وهو مايلتقى عليه بنو آدم ، اما مادة الإنسانية ، فإنها لاتعنى مجرد بشر يأكل ويشرب ، أو ينتمي الى الانس ، وانما فيه ارتقاء الي الدرجة التى تؤهله للخلافة فى الأرض. أى بعد أن زوده الله بالقوى المادية التى تربطه بالأرض ، والقوى الروحية التى تربطه بالكون وبخالقه، والقوى العقلية التى تمكنه من الاختيار.

---

(١) د. محمد فريد وجدى : الاسلام فى عصر العلم . ص ٢٨٣ . ط . الثالثة . دار الكتاب العربى بيروت سنة ١٩٦٧.

(٢) ابن منظور : لسان العرب : مادة أنس . ط . دار المعارف . القاهرة.

والانسان بعناصره الثلاثة على صورتين ، صورة عامة يتمثل فيها الإنسان المادى ، والروحى والعقلاني وصورة خاصة ، يتمثل فيها اعتقاد الحق وفعل الخير بحسب الطاقة ، ويعنى ذلك أنه أكثر انسانية .

ومقارنة هذا المفهوم للإنسان فى القرآن مع المفهوم المادى يظهر لنا جليا الفرق بين التصورين، المادى الناقص المقتصر على الجانب المادي أو البشرى، والتصور المتكامل الشامل للمادة والروح والعقل.

وهكذا نجد القرآن الكريم سما بالانسان فاعترف به كله ، روحه وجسده ، عقله وقلبه، ارادته ووجدانه ، غرائزه الهابطة . والجامحة. فلم يقدم لنا الانسان على أنه الخير كله ، أو الشر كله ، ولكنه بعقله وعرفانه يستطيع أما أن يكون هذا أو ذاك . بما لطف عليه من إرسال الرسل والأنبياء والمصلحين وماجاؤا به من مواعظ وارشادات ، ووصايا، وحكم وتوجيهات ، يستقيم معها الخير كله.

ا - الإنسان من خلق الله:

وبهذا الاهتمام الواسع بكل جوانب الإنسان تحدث القرآن عن الانسان فى عشرات، بل مئات من آياته وصوره فى أحسن تصوير ، فلم يفعل كما فعلت المذاهب الأخرى ، بل وضح العلاقة بين الخالق والمخلوق ، وأنه إبداع خالق الوجود ، ومظهر من مظاهر قدرته ، خلقه وكرمه ، هداه وعلمه . وهذا مانوهت اليه العناية الالهية فى مفتتح الوحى ، فهذه الآيات الأولى فى القرآن قوله تعالى " اقرأ باسم ربك الذى خلق، خلق الانسان من علق" (١).

---

(١) سورة العلق . آية ١ ، ٢.

فاذا تأمل هذه الآيات نجد فيها ذكر العام قبل الخاص ، أى أن الله سبحانه وتعالى خلق جميع المخلوقات ويكون تقديره : الذى خلق جميع المخلوقات بما فيها "الانسان" وافراده بالذكر بعد ذلك ، يدل على خصوصية تكريم الإنسان بنوع من الخلق الخاص. فى قوله "خلق الانسان" فهذه معان جاءت فى الآية لتدل على هذه الخصوصية والتكريم .

وقد خص خلق الانسان بالذكر من بين المخلوقات لأن المطرد فى مقام الاستدلال اذ لايغفل أحد من الناس عن نفسه ولايخلوا من أن يخطر له خاطر البحث عن الذى خلقه وأوجده، ولذلك قال تعالى "وفى انفسكم أفلا تبصرون"(١).

ولم يتوقف الامر عند ذلك ، فقد خصه ببديع الاطوار والصفات التى جعلته سلطان هذا العالم الأرضى فى قوله " من علق" . كما انه يتضح من ظاهر هذه الآيات أن الله سبحانه وتعالى خلق الانسان فى أحسن صورة وركبه وهيأة لتلقى جميع المعارف ، من قراءة . وكتابة. تؤهله لتلقى جميع الثقافات العلمية والأدبية ، بل هيأ طاقته الذهنية إلى مافيه تقدمه وتطوره.

فهل اختص اله سبحانه وتعالى خلقا آخر بما اختص به الانسان؟

---

(١) سورة العلق . آية ١، ٢ .

إن كل هذه النعم التى أغدقها الله سبحانه وتعالى عليه من رفعه فوق المخلوقات، واختصاصه بالمعرفة دون غيره ، ورعاه بالتربية والرعاية، والعناية، والكفالة ، والقرابة، ووصفه بصفات الكرم، كل هذه شؤون اختصه الله سبحانه وتعالى بها اتماما لنعمة الربوبية عليه. فما على الإنسان فى هذا الحقل الا أن يومئ القلب والعقل والرأس ، شكرا لنعمه عليه.

ولم يكتف القرآن الكريم بالحديث عن خلق الانسان فى مفتتح نزوله ، بل نراه قد ذكره فى مواضع كثيرة، فقد تعرض الي الخلق الأول، والى المادة التى جعل منها ، فقد جاء فى قوله تعالى " خلقه من تراب" (١)،ثم قال له " كن، فيكون " ثم تردد هذا المعنى فى قوله تعالى " والله خلقكم من تراب(٢)، وقوله تعالى " هو الذى خلقكم من تراب" (٣)وقوله تعالى " ومن آياته أن خلقكم من تراب"(٤)، وقوله تعالى :" فانا خلقناكم من تراب" (٥).

وفى سورة الكهف على لسان من حاور صاحب الجنتين : "أكفرت بالذى خلقك من تراب " (٦).

---

(١) سورة آل عمران : آية ٥٩ .

(٢) سورة فاطر : آية ١١ .

(٣) سورة غافر : آية ٦٧.

(٤) سورة الروم : اية ٢٠.

(٥) سورة الحج : آية ٥ .

(٦) سورة الكهف : آية ٣٧.

ومن المعلوم أن "الخلق من تراب" هو لأدم عليه السلام بالتسبب التكويني الخارق : " كن فيكون" أما انطباقه على :"خلق الانسان" عموما ، فاعتبار لأصله ، وبدء منشئه.

وتعرض " القرآن الكريم"-أيضا الى ذكر نوعية التراب الذى كان منه آدم ، فقد ورد قوله تعالى " وإذ قال ربك للملائكة انى خالق بشرا من صلصال (١)من حمأ (٢) مسنون (٣)(٤) "قوله تعالى: " اذ قال ربك للملائكة انى خالق بشرا من طين" (٥).

وقوله تعالى :" خلقتنى من نار وخلقته من طين" (٦) ، وقوله تعالى: " أنا خير منه خلقتنى من نار وخلقته من طين" (٧) فهذه الآيات تفيد صراحة بأن ابليس اتخذ كون آدم من طين مبررا لامتناعه عن السجود التكريمى،كما أنه قد عبر عن مراعاة الأصل، كما أشرنا. فجاء قوله تعالى :" ولقد خلقنا الانسان من صلصال من حمأ مسنون" (٨). وفى الثانية :" خلق الإنسان من صلصال كالفخار" (٩).

---

(١) صلصال : مأخوذ من الصلصلة ، وهى الصوت ، وهو الطين اليابس لم تصبه النار ، فاذا أنقرته سمعت له صلصلة.

(٢) حمأ : طين تغير واسود من مجاورة الماء .

(٣) مسنون : مصور علي صورة الوجه : أى مفرغ على هيئة انسان .

(٤) سورة الحجر : اية ٣٣ .

(٥) سورة ص : آية ٧١ .

(٦) سورة الاعراف : آية ١٢.

(٧) سورة ص : آية ٧٦.

(٨) سورة الحجر : اية ٢٦ .

(٩) سورة الرحمن : آية ١٤.

أن هذا الخلق الخارق من التراب أو الطين، وأن كنا لاندرك حقيقته، ولاكيفية حدوثه ، باعتباره مسألة في عالم الغيب، وفوق تصورنا ، الا أنها تشير الى قدرة إلهية، وعناية فائقة بالانسان.

ولم يتوقف القرآن عند الحديث عن الخلق ابتداء ، بل نراه قد اهتم بذكر " الخلق" المألوف الذى حظى بالإعلان عنه في سورة العلق، فى أول مانزل ، فقد جاد قوله تعالى:" خلق الانسان من نطفه " (١)، وقوله تعالى :" إنا خلقنا الإنسان من نطفة امشاج" (٢)،وقوله تعالى: "من نطفة خلقه" (٣)، وقوله تعالى :"خلق من ماء دافق " (٤) كما أن القرآن الكريم قد حوى فى سورة المؤمنون بيان كافة الأطوار الدقيقة التى يجتازها خلق الإنسان : " ولقد خلقنا الإنسان من سلالة من طين ، ثم جعلناه نطفة فى قرار مكين ، ثم خلقنا النطفة علقة ، فخلقنا العلقة مضغة ، فخلقنا المضغة عظاما ، فكسونا العظام لحما، ثم أنشأناه خلقا آخر ، فتبارك الله أحسن الخالقين" (٥)، وقوله تعالى: " الذى أحسن كل شيئ خلقه ، وبداء خلق الانسان من طين ، ثم جعل نسله من سلالة من ماء مهين ، ثم سواه ونفه فيه من روحه ،

---

(١) سورة النمل : آية ٤ .

(٢) سورة الانسان : آية ٢٢.

(٣) سورة عيسى : آية ٨٧.

(٤) سورة الطارق : آية ٥.

(٥) سورة المؤمنون : آية ١٢ : ١٤ .

وجعل لكم السمع والأبصار، والأفئدة قليلا ما تشكرون"(١)، وقوله تعالى :"ألم يك نطفة من منى يمنى ، ثم كان علقة فخلق فسوى"(٢).

أن تلك الآيات قد اعطت " خلق الانسان" عناية فائقة ، وهى تدل بمنطوقها ومفهومها على : أن هذه الخلق : انما هو فعل خالق واسع العلم، بالغ الحكمة ، نافذ المشيئة ، عظيم القدرة ، وانه مدعاة للاعتراف بنعمة التى لاتحصى فكان حقا عليه: أن يعرف فلا يجحد ، ويشكر فلا يكفر ، ويطاع فلا يعصى ، ويفرد بالعبادة فلا يشرك به - كما أن هذا التفضيل الذى منحه الله لهذا الكائن المفضل هو شعور جميل، ومشاعر رقيقة ، تسرى فى كيانه فتجعله انسانا عزيزا كريما ، كبير الآمال ،انسانا لايحنى رأسه لمخلوق، ولا يطأطئ رقبته لجبروت، أو طغيان أو مال أو جاه .أن شعاره هذه الكلمة : " سيد فى الكون عبد الله وحده ".

ويقول ابن قيم الجوزيه فى هذا المقام : "فاذا تفكر الانسان فى نفسه استنارت له آيات الربوبية، وسطعت له انوار اليقين، واضمحلت عنه غمرات الشك والريب، وانقشعت عنه ظلمات الجهل ، فأنه اذا نظر فى نفسه وجد آثار التدبير فيه قائمات، وأدلة التوحيد عن ربه ناطقات، شاهدة لمدبره ، دالة عليه ، مرشدة اليه اذ تجده مكونا من قطرة ماء منضدة "مضمومة ومتسقة "وعظاما مركبة، واوصالا متعددة

---

(١) سورة السجدة : اية ٧ : ٩ .

(٢) سورة القيامة : آية ٣٦ .

مأسورة مشددة بحبال العروق ، والاعصاب قد قمطت، وشدت ، وجمعت بجلد متين، مشتمل على ثلاثمائة وستين مفصلا مابين كبير وصغير وثخين ودقيق ، ومستطيل ، ومستدير ، ومستقيم، ومنحنى ، وشدت هذه الأوصال بثلاثمائة وستين عرقا للاتصال والانفصال والقبض والبسط ، والمد والضم ، والصنائع، والكتابة..." (١).

وقد عقد ابن القيم فصولا عديدة: حلل فيها مختلف الاعضاء الجسمية الظاهرة والباطنة، ومالها من دقة فى التركيب وتناسق فى قيامها بوظائفها، وكلها تثبت حكمة التدبير التى حظى بها خلق الانسان(٢).

وبعد هذا العرض تبين لنا : أن من يتفكر فى تركيب الإنسان، وفى مختلف مكوناته يدرك أن هذا الخلق يستحيل أن يكون رمية انفلاتيه ، أو قبضه من تراب هذه الأرض . من الأرض نشأ وعلى الأرض يمشى ، ومن الأرض يأكل ، وإلى الأرض يعود !! . وأن يكون أحد الاحياء الكثيرة المتنوعة على هذه الأرض ، أو هو من جنس هذه الهوام والحشرات والزواحف والقرود . غاية امره انه " تطور" بمرور الزمن. وانما هو مخلوق كريم، خلقه ربه فى أحسن تقويم ، صوره فأحسن صورته ، فخلقه بيديه، ونفخ فيه من روحه ، وسخر له ما فى السموات وما فى الأرض جميعا منه ، وأسجد له ملائكته بعد أن نفخ فيه من روحه ، وجعله خليفته فى أرضه.

---

(١) ابن القيم : التبيان فى أقسام القرآن من صـ ٣٨٤ : ص ـ ٣٨٨ .

(٢) نفس المرجع : صـ ٣٨٤ : صـ ٥٥٠.

جـ- الإنسان : مادة وروح :

وتظهر العناية الفائقة بالتأكيد على أن " الإنسان " من صنع الله ، وابداعه ، وأنه خصه بما لم يخص به أحدا من خلقه ، يتضح ذلك فى قوله تعالى :" وأذقال ربك للملائكة : انى جاعل فى الأرض خليفة ، قالوا : أتجعل فيها من يفسد فيها ، ويسفك الدماء ، ونحن نسبح بحمدك ، ونقدس لك ، قال : أنى أعلم مالا تعلمون " (١).

أن القصة جاءت فى القرآن معطوفة على قصة خلق السموات والأرض، وقد ذكرت القصتان فى سورة البقرة فى سياق التدليل على أن الله واحد أحد ، وعلى أن الشرك باطل من باب الجمع بين تعداد الأدلة ، وبين مختلف حوادث تكوين العالم وأصل نشأته ، وبيان العلاقة القائمة بين خلق مافى الأرض جميعا ، وخلق أصل النوع الإنسانى ، قال ابن عاشور : " واذا قد كانت العبرة بخلق مافى الأرض جميعا أدمجت فيها منه وهى قوله : "لكم" (٢) المقتضية أن خلق ما فى الأرض لأجلهم ، تهيأت أنفسهم لسماع قصة ايجاد منشأ الناس الذين خلقت الأرض لأجلهم ليحاط بما فى ذلك من دلائل القدرة ، مع عظيم المنة، وهى منه الخلق التى نشأت عنها فضائل جمة، ومنه التفضيل ، ومنه خلافة الله فى الأرض ، فكان خلق ما فى الأرض لنا ".

---

(١) البقرة : آية ٣٠ .

(٢) البقرة : آية ٢٩ : " هو الذى خلق لكم مافى الأرض جميعا ثم استوى الى السماء فسواهن سبع سموات وهو بكل شيئ عليم.

ثم إننا اذا تأملنا الآية الكريمة،نتبين : أن استفهام الملائكة الاستفسارى أشار الى حقيقة ذاتية فى الانسان وهى مافيه من استعدادات يمكن أن تجعل منه كائنا قسا قلبه كالحجارة أو أشد قسوة.

أن هذا التفسير الذى بدأ للملائكة حسب مداركهم النورانية الخاصة بهم التى لاتفقه ماهيتها ، وأن أشار الى حقيقة صحيحة وواقعة فى "الإنسان" فهو تفسير منقوص ، ولذلك احتاج الى تفسير اشمل تضمنه التعقيب الكريم: " انى أعلم مالا تعلمون".

لقد تضمن التعقيب الكريم : أن الانسان حوى الى جانب دواعى الشر التى أعلن عنها الملائكة وهى : كونه يفسد فيها ويسفك الدماء ، دواعى الخير والبر ، والنفع والجمال وهذا يعنى . أن الانسان مهيأ لارتكاب افدح الشرور، ومستعد ايضا الى فعل الخير وعلى ذلك يكون مكونا من عنصرين :

مادى : قد يطمس فيه استعداده الفطرى للخير ، ويغرس فيه بذور الشر والعدوان ويدفعه الى فعل الشر وارتكاب الجريمة.

وروحى : ويوجهه هذا الاستعداد الى فعل الخير، وتجنب الشر وذلك بما للروح من قدرة علي التهذيب والتوجيه ، حيث أن القرآن الكريم لم يفصل الجانب الروحى عن الجانب الروحى عن الجانب المادى - بل هما أملاك الذات الإنسانية ، تتم بهما الحياة ولاينكر أحدهما فى سبيل الآخر.

أن هذه الطبيعة المزدوجة هى التى تفسر حقيقة الإنسان، وهى التى جعلته يتبوأ هذه المكانة فى خلافة الأرض . ولم يتوقف الأمر عند هذا المنعطف فى توزانه بين الجانب الروحى والمادى ، بل نراه قد كشف - بصورة تعليمية - عما يتميز به هذا الانسان فى مجال العلم والمعرفة فى قوله تعالى " وعلم آدم الاسماء كلها ، ثم عرضهم على الملائكة فقال : أنبئونى بأسماء هؤلاء أن كنتم صادقين ، قالوا : سبحانك : لا علم لنا الا ماعلمتنا ، أنك أنت العليم الحكيم قال : يا آدم : أنبئهم بأسمائهم، فلما أنبئهم بأسمائهم ، قال الم أقل لكم: إنى أعلم غيب السموات والأرض وأعلم ماتبدون ، وما كنتم تكتمون" (١).

أن هذه الآيات سبقت فى بيان أن علم الانسان وعمله غير محدودين ، وبهذه الخاصة التى فطر الله الناس عليها كان الانسان أجدر بالخلافة من الملائكة وهذه حجة الله البالغة على الملائكة التى بينها لهم بعد مانبههم الى عمله المحيط بما لايعلمون، وبين أنه علم آدم الأسماء كلها - أى أودع فى نفسه علم جميع الاشياء - من غير تحديد ، ولا تعيين مما جعله جديرا بالخلافة.

وفى بيان ذلك يعلق ابن عاشور : " عطف حكاية الدليل التفصيلى على حكاية الاستدلال الاجمالى الذى اقتضاه قوله : "أنى أعلم مالا تعلمون " ، فإن تعليم ادم الاسماء واظهار فضيلته بقبوله لهذا التعليم دون الملائكة، جعله الله حجة على قوله: " أنى أعلم مالا

---

(١) سورة البقرة : آية ٣١ : ٣٣ .

تعلمون" ، أى : مالا تعلمون من جدارة هذا المخلوق بالخلافة فى الأرض (١).

فالانسان بهذه القوة التى أودعها الله ، غير محدود الإستعداد ولا محدود الرغائب ولا محدود العلم ولامحدود العمل، كل ذلك بموجب ما أعطاه الله تعالى من مواهب ، وفى ذلك يقول البيضاوى : " والمعني أنه تعالى: خلقه من أجزاء مختلفة، وقوى متباينة مستعدا لادراك أنواع المدركات من المعقول ، والمحسوسات ، والمتخيلات والموهومات، وألهمه معرفة ذوات الاشياء ، وخواصها ، واسماءها ، واصول العلوم ، وقوانين الصناعات ، وكيفية آلاتها" (٢).

وهكذا يتبين أن الانسان بهذه القوة يتصرف فى الكون تصرفا لأحد له باذن الله وتصريفه ، وكما أعطاه الله تعالى هذه المواهب والأحكام الطبيعية ليظهر بها أسرار حليقته ، وملكه الأرض وسخر له عوالمها - أعطاه احكاما وشرائع حد فيها لأعماله وأخلاقه. وقد ظهرت آثاره فى هذه الخلافة على الأرض ونحن نشاهد عجائب صنيعه فى تسخير نواميس الطبيعة فى البر والبحر والهواء .

فهو يتفنن ويبتدع ، ويكشف ويخترع ، ويجد ويعمل ، حتى غير شكل الأرض.

د- الانسان كائن مفضل:

ومازالت العناية الإلهية قائمة، والرعاية شاملة ويتمثل ذلك فى كونه أوجده خالق الوجود ، الذى ابدع كل شئ وجعله فى أحسن

---

(١) ابن عاشور : التحرير والتنوير : ٤٠٧/١.

(٢) مرجع سبق ذكره .

صورة ظاهرة ، وباطنة. فلم يهتم بجانب على حساب جانب آخر كما فعلت المذاهب الأخرى فلم يجعل اعتدال قوام الإنسان هو الصورة الظاهرة ، وليس جمال الخلق وحده مرتبطا اعتدال القوام ، بل ترتبط به القدرة على العمل . وهذه الصورة واضحة منذ زمن بعيد فى علم التشريح ووظائف الاعضاء الذى اثبت العلاقة الضرورية بين اعتدال القامة ، وسائر البدن مما جعله أهلا للترقى الى أحسن تقويم ، وأن أطوار خلقه السوى أعدادا لما هو أشرف من حياته الحيوانية . وفى ذلك يشير القرآن الكريم الى قوله تعالى : " لقد خلقنا الانسان فى أحسن تقويم" (١).

وفي هذا التفضيل يقول الإمام ابن القيم : " اعلم ان الله سبحانه وتعالى اختص نوع الانسان من بين خلقه بأن كرمه وفضله وشرفه ، وخلقه لنفسه وخلق له كل شيئ ، وخصه من معرفته ومحبته وقربه واكرامه بما لم يعطه غيره وسخر له مافى سمواته وأرضه وما بينهما . حتى ملائكته - الذين هم أهل قربة - استخدامهم له ، وجعلهم حفظة له فى منامه ويقظته، وظعنه وإقامته... وأنزل اليه وعليه كتبه ، أرسله وأرسل اليه ، وخاطبه وكلمه منه واليه ... ، فلا نسان شأن ليس لسائر المخلوقات " (٢).

فبهذه الإستعدادات التى وضعت له نجد أنه إنسان مكرم ومفضل على جميع أنواع الخلق (ولقد كرمنا بنى ادم وحملناهم فى البر والبحر ورزقنا هم من الطبيات وفضلناهم على كثير ممن خلقنا تفضيلا) (٣).

---

(١) سورة التين : آية ٤.

(٢) مدارج السالكين جـ ١ . صـ ٢١٠.

(٣) سورة الاسراء : آية ٧٠.

الإعلام بخلقه وتحمله الرسالة يدل على رفعة شانه :

فهذه هى مكانته فى الملاء الأعلى - هذه المكانة التى أشرأبت اليها أعناق الملائكة المقربين وتطاولت إليها نفوسهم فما أوتوها . فإن الذى اختاره الله له هذه المكانة - خلافة الله في الأرض - هو الإنسان ، " واذ قال ربك للملائكة أنى جاعل فى الأرض خليفة. قالوا أتجعل فيها من يفسد فيها ويسفك الدماء ، ونحن نسبح بحمدك ونقدس لك ؟ قال : أنى أعلم مالا تعلمون" (١).

فالاستخلاف هنا وتحمل هذه الرسالة السامية إنما هو تكليف الله سبحانه وتعالى له - فهو من باب التكريم بتولى اجراء أحكامه فى شؤون الحياة واعمارها بالحق والعدل.

وحتى يتحقق الاستخلاف ، فانه لابد من الأمور التالية:

أولا : مسؤولية الانسان تجاه من استخلفه ، ويتضح من خلالها علاقة الانسان باله سبحانه وتعالى وأساسها " الطاعة" ، هذه الطاعة التى تنفذ بما حباه الله سبحانه وتعالى . بطاقات مادية وذهنية تجعله مسؤولا عن ذلك.

ثانيا: كما أن هذه الطاعة لاتقوم على جهل إذا لابد لها من علم ، لأن عمارة الكون لاتقوم الا بمعرفة استخدام كل الأساليب التى بها سنن الكون ونواميسه .

ثالثا:مسؤولية الإنسان تجاه ما استخلف عليه وهو الكون ، وتتضح من خلالها علاقة الإنسان بالكون وأساسها التسخير والمقصود بالتسخير هنا. استغلال قابلية الطاعة فى الأشياء المخلوقة فى

---

(١) سورة البقرة : آية ٣٠ .

هذا الكون من قبل الانسان الخليفة وفق المعايير أو القوانين أو السنن الكونية التى أرادها الله، حتى يحقق الإنسان الطاعة فى عمارة الكون وقيام الحياة . " وسخر لكم ما فى السموات وما فى الأرض جميعا" (١).

رابعا : ولايقوم تسخير دون جهد أو عناء أو صبر ومصابرة ، لأن عملية الاستخلاف لا تتحقق الا بالصبر والمعاناة وذلك لمعرفة مقدار استجابة الانسان لذلك . وهكذا نجد أن "الإنسان" فى القرآن لم يكن كائنا عاديا كبقية المخلوقات، وإنما هو البشر الذى منحه الله من التكريم الكثير، والكثير ونتبين هذا التكريم أيضا فى قوله تعالى" اذ قال ربك للملائكة : أنى خالق بشرا من طين . فاذا سويته ونفخت فيه من روحى فقعوا له ساجدين، فسجد الملائكة كلهم اجمعون ، آلا ابليس استكبر وكان من الكافرين قال : يا ابليس مامنعك أن تسجد لما خلقت بيدى ، استكبرت أم كنت من العالين ، قال أنا خير منه خلقتنى من نار وخلقته من طين ، قال : فاخرج منها فانك رجيم" (٢).

أن هذه المحاورة الإعلامية التى ذكرت هنا فى سورة الحجر "وفى سورة ص " وأن كنا لاندرك حقيقة ماهيتها ، ولا كيفية وقوعها ، باعتبارها قد تمت فى الملاء الأعلى فى عالم الغيب" ، فإنها تشير الى مدى العناية التى حظى بها هذا المخلوق العجيب.

---

(١) سورة الحجر : آية ٢٨ : ٣٤ .

(٢) سورة ص : آية ٧١-٧٧.

لقد ابتدأ كل من المقامين : (الحجر : ٢٨ -٣٤ و ص ٧١-٧٧) بقول الله الموجه الى الملائكة على وجه الإعلام، وهذا يدل من جملة مايدل على أهمية المخبر به ، وعلى علو شأنه بالنسبة الى غيره من المخلوقات. وفى ذلك يوضح ابن عاشور تعليقا على مافى (البقرة: ٣٠ -٣٧) " وقول الله هذا موجه الى الملائكة على وجه الاخبار ليسوقهم الى معرفة الجنس البشرى على وجه يزيل ماعلم الله فى نفوسهم من سوء الظن بهذا الجنس " (١).

هـ - تسوية الانسان:

ونرى هذه العناية فى ذكر القرآن الكريم على تسويته، قوله تعالى" فإذاسويته ونفخت فيه من روحى فقعوا له ساجدين(٢)" . وقوله تعالى " ثم سواه ونفخ فيه من روحه ، وجعل لكم السمع والابصار والأفئدة، قليلا ماتشكرون " (٣) . فهى تفيد : أن أطوار خلقه السوى انما هى إعداد لما هو أشرف من حياته الحيوانية كما انها تهتم بالتئام الجانب الروحى والمادى معا من أجل التآلف والتوافق والانسجام.

و - نفخ الروح فيه :

ومن الآيات السابقة يتضح أيضا مدى العناية الالهية بذكر : "نفخ الروح" فيه وقد شرح " دروزة" ذلك بقوله " وروح التعبير فى

---

(١) ابن عاشور : التحرير والتنوير : ١ / ٤٠٠.

(٢) سورة الحجر : آية ٢٩.

(٣) سورة السجدة : آية ٩.

مختلف المواضع تلهم قصد التدليل على قدرة الله، وتقرير نسمة الحياة فى الإنسان الأول ... مع ملاحظة أن استنتاج وتقرير أى صلة حقيقية بين الله ، والانسان عن طريق الروح بمفهومها الحرفى لامعنى لها ، وليس مما تقضيه ، أو تتحمله العبارات ، والتقريرات القرآنية المتنوعية، وخاصة ضوابط الكنه الربانى فى القرآن[١]".

وقد فسر ذلك ابن عاشور: " بأن النفخ : حقيقته اخراج الهواء مضغوطا بين الشفتين مضمومتين كالصفير واستعير هنا بوضع قوة لطيفة السريان قوية التأثير دفعة واحدة وليس ثمة نفخ ولا منفوخ ... واسناد النفخ واضافة الروح الى ضمير اسم الجلالة تنويه بهذا المخلوق، وفيه ايماء الى أن حقائق العناصر عند الله تعالى لاتتفاضل الا بتفاضل آثارها وأعمالها" [٢].

ومما يدعم هذا التكريم ورفعة الشأن أيضا ماعاقب عليع ابليس حين أبى واستكبر السجود لهذا المخلوق" الذى ابدعه الله سبحانه وتعالى بقوله :" مامنعك أن تسجد لما خلقت بيدى ، واستكبرت أم كنت من العالين" [٣] ، فهذه الكلمة : " خلقت بيدى " فانها تعنى أن الله سبحانه وتعالى خلق الانسان بقدرة ، مما جعله فى منزلة العلو والشرف ، وكيف سيره فى اطوار الحمل والولادة.

---

(١) محمد عزة دروزة : التفسير الحديث : ١٠٩/٢ . ط الحلبى - القاهرة سنة ١٩٦٢.

(٢) ابن عاشور : التحرير والتنوير : ١٤ /٤٤.

(٣) سورة ص : آية ٧٥.

وقد علق ابن عاشور على ذلك بقوله : " أى خلقته بقدرتى، أى خلقا خاصا دفعة مباشرة لأمر التكوين تعلقا اقرب من تعلقه بايجاد الموجودات المترتبة لها من أصولها ولاشك فى زن خلق آدم فيه عناية زائدة وتشريف اتصال أقرب " (١).

ز- الامر بالسجود لآدم :

وقد أراد الله سبحانه وتعالى أن يظهر مكانة الانسان فى العوالم الروحية . فأمر الملائكة أن تؤدى التحية لهذا الكائن الجديد، وتستقبله بانحناء اجلال واكبار : " اذ قال ربك للملائكة انى خالق بشرا من طين فاذا سويته ونفخت فيه من روحى ، فقعوا له ساجدين ، فسجد الملائكة كلهم اجمعون الا أبليس" (٢).

لكن ابليس تمرد على أمر ربه بالتحية لهذا الإنسان ، واتخذ موقف التحدى فكان عقابه كما ذكر القرآن الكريم : " فاخرج منها فانك رجيم" ، وان عليك لعنتى الى يوم الدين " (٣).

وقوله تعالى " قال فاهبط منها فما يكون لك أن تتكبر فيها ، فاخرج انك من الصاغرين" (٤).

---

(١) ابن عاشور : التحرير والتنوير : ١٤/٤٤.

(٢) سورة ص : آية ٧١ - ٧٤ .

(٣) سورة ص : آية ٧٧-٧٨.

(٤) سورة الاعراف : آية ١٣.

هـ - تسخير مافى الكون لخدمته :

لقد أوضح القرآن الكريم مركز الانسان فى هذا الوجود المادى ، فهو مركز السيد المتصرف الذي سخر كل مافى الوجود لخدمته ، بل أن الوجود نسيج من أجله ، لأحياء حياته ، وبناء حضارته. وتوفير أمنه واستقراره ، واذا تأملنا الآية الكريمة فى قوله تعالى : " ولقد كرمنا بنى آدم وحملناهم فى البر والبحر ورزقناهم من الطيبات وفضلناهم على كثير ممن خلقنا تفضيلا" (١).

ويتضح لنا انها قد اعلنت : بنعمة الله عليه فى كل ماحوله ، فيرى فى كل ذرة فى الأرض أو فى السماء منحة الله له تيسر له معيشته ، وتعينه على القيام برسالته فى الحياة.

أنه يرى نعمة فى هبة الريح، وسير السحاب وتفجر الانهار، ويزوع الشمس، وطلوع الفجر، وضياء النهار وظلام الليل وتسخير الدواب، وانبات النبات . كل ذلك يعينه على تنمية حياته الجسدية، والنفسية، والعقلية، والحضارية، وفى موضع آخر من الآيات يقول سبحانه وتعالى : " وهو الذى خلق لكم مافى الأرض جميعا" (٢)

فهذه الآية تبين أن جميع مافى الكون من موجودات ، متحركة وساكنة ، متغيرة وثابتة، كبيرة وصغيرة ، معلومة ومجهولة. انما هى أعدت لخدمة الانسان ، ومساعدته على القيام بدوره فى الحياة.

---

(١) سورة الاسراء : آية ٢٩ .

(٢) سورة البقرة : آية ٢٩ .

وفي ذلك يقول ابن عاشور : أن لام دلت على أن خلق مافي الأرض ، كان لأجل الناس" وبين أن المقصود هو التفكير بأن الله هو خالق الأرض وما عليها وما في داخلها ، وأن ذلك خلقه بقدر انتفاعنا بها وبما فيها في مختلف الأزمان ، والأحوال ، فاوجز الكلام ايجازا بديعا بأقحام قوله "لكم" فأغنى عن جملة كاملة فالكلام مسوق مساق اظهار عظيم القدرة واظهار عظيم المنة على البشر واظهار عظيم منزلة الانسان عند الله تعالى" (١). وعلق محمد رشيد رضا على الآية بقوله : " وأى نعمة أكمل من جعل مافى الأرض مهيا لنا ومعدا لمنافعنا وللانتفاع بالأرض طريقان أحدهما الانتفاع بأعيانها في الحياة الجسدية ، وثانيهما النظر والاعتبار بها في الحياة العقلية" (٢).

ومعنى هذا أى نعمة اكمل من تسخير هذا العالم بما فيه، وماعليه، لتنمية حياة الانسان الجسدية والفكرية والثقافية، ولاقامة شؤونه الحضارية ، واعماله العمرانية التى تثبت للعيان أن الانسان حقيق بالخلافة وجدير بالامانة ، فالانسان بقوته الذهنية النامية يصنع عالمه ويحدد وضعه بالنسبة الى الماضى بذاكرته وشخصيته ويحدد وضعه فى القضاء والواقع وبقوته العضلية الحركية ، وينطق من ميدان إلى ميدان فيصنع الادوات ويضع النظريات وينهض لاستخراج مافى طبائع الموجودات الأرضية لستخيرها لخدمته.

---

(١) ابن عاشور : التحرير والتنوير : ٣٧٩/١.

(٢) محمد رشيد رضا : تفسير المنار : ٢٤٧/١. ط الثالثة . دار المنار بمصر سنة ١٣٦٧هـ.

وقد علق ابن عاشور على قوله تعالى:"ويخلق مالاتعلمون"[١]، الواقع أثر امتنان القرآن بما خلق للناس من أنعام توفر لهم الدقة ، والمنافع ، والغذاء فى اقامتهم ، وترحالهم، وبما يجدونه فى الخيل ، والبغال والحمير من خدمات ومايتيسره من مظاهر الجمال ، والزينة بقوله : فالذى يظهر لى أن هذه الآية من معجزات القرآن الغيبة العلمية " وانها ايماء الى أن الله سيلهم البشر اختراع مواكب هى اجدى عليهم من الخيل والبغال، والحمير وتلك المجلات التى يركبها الواحد ، ويحركها برجله : "بسكلات Bicyclette وأمثال السكك الحديدية ، والسيارات المسيرة بمصفى النفط وتسمى " أطومبيل Automobile ، ثم الطائرات التى تسير بالنفط المصفى فى الهواء ، فكل هذه المخلوقات نشأت فى عصور متتابعة ، ولم يكن يعلمها من كانوا قبل عصر وجود كل منها إلهام اله الناس لاختراعها هو مخلق بخلق الله ، فالله هو الذى ألهم المخترعين من البشر بما فطرهم عليه من الذكاء والعلم ، وبما تدرجوا فى سلم الحضارة ، واقتباس بعضهم من بعض الى اختراعها ، فهى بذلك مخلوقة لله تعالى لأن الكل من نعمه" [٢].

وهكذا نجد فى آيات كثيرة فى القرآن الكريم قد تناولت ماسخر لخدمة الانسان، وتحقيق الراحة الانسانية فى جميع جوانبها المتعددة المتقابلة ، المتكاملة ، جسدية وعقلية ، ونفسية وروحية.

قد يتسع المقام لذكر هذه الآيات ولكنها جميعا تشير الى أن هذا الكائن الانسانى حباه الله كل هذه النعم التى مهدت له التقدم فى شتى مجالات الآداب والعلوم والفنون، والمدن والعمران.

---

(١) سورة النمل : آية ٨ .
(٢) ابن عاشور : التحرير والتنوير : ١١١/١٤.

خلاصة وتعليق :

بعد هذا العرض تبين لنا ، أن القرآن الكريم قد حدد منزلة الإنسان فى هذا العالم - فهو مخلوق متميز من مخلوقاته ليس بجماد ولانبات أو حيوان ، ولابملاك ولا شيطان ، انه مخلوق ميزه الله سبحانه وتعالى بالتفكر والتدبر والتعقل.

لايقوم من تلقاء نفسه فى هذا الكون الفسيح كما زعم الفلاسفة الماديون بل أوجده عالم صانع قادر مريد أوجده لحكمة ودفعه لغاية ، وأعطاه العلم والبيان ووهب له السمع والبصر والفؤاد كل ذلك كان عنه مسؤول.

وهكذا يعيش الانسان فى التصوير القرآنى ، وهو يعتقد أنه كائن مميز مسئوول مكرم ، ورفع راية الخير واشاعة الحب والجمال فى هذا العالم !.

كما انه يشعر بأن العالم بما فيه قد سخر لخدمته وسعادته ، ورفع إنسانيته ، وأن الملائكة الكرام فى حراسته والله سبحانه وتعالى فى حمايته. وأنه من عبادة المفضلين الذين أنعم الله عليهم من النبيين والصديقين والشهداء والصالحين ، وأن جوده لاينتهى بل هو امتداد لهذا الكون الرحب الفسيح المليئ بالتقدم والعمران . أن هذه المنزلة القرآنية تدفعنا الى ادراك مايوجد بينها وبين كل من الروحية والمادية من فوارق واضحة. فالقرآن الكريم لم ينكر طبيعته المزدوجة لأنها أمرا طارئا عليه، ولا ثانوية فيه ، بل هى فطرته التى فطره الله عليها ، من الوقوف لرفع راية الحق، وأفاضة الخير ، وأشاعة الجمال فى الكون ! وأن هذه الفطرة تعلو به فوق عالمه الجسدى ، وما يغلى فيه من شهوات البطن والفرج وترفعه بهذا الجسد الى عالم الروح

فيخف سعاره وتنكسر حدة شهواته ويتقاسم جهده ، روح وجسد هما الجناحان اللذان يحلق بهما فوق عالم الحيوان الذى يدب على الأرض وانه بقدر مايعلى المرء من شأن الروح . بقدر مايعلو ويسمو ، فيكون انسانا أقرب الى الملاء الأعلى منه الى عالم الدواب والأنعام، وبهذا سما القرآن بالانسان بينما سعى " المنطق المادى " الى اعدام الماهية القبلية " وانكر " " الحكمة القصدية" أو لماهية بعدية متروكة الي الطوائ فضلا عن كونها تجعل حياة الانسان فى مهب الريح ، فانها تؤدى الى "العدمية " بما يترتب على ذلك من عدم الالتزام وظهور صور مخيفة مفزعة لهذا العالم . من ظهور تجاوزات واباحيات ، وعبثيات ، وتمردات ، فاشباع اللذات بأى طرق كانت هو نداء للغرائز، يفعلها الإنسان متى شاء ، فيما شاء وعلى أى طريقة شاء . وهكذا فإن المخدوعين منها يقطعون أنفسهم لهثا وراء هذه الحياة. تلك انحرافات أدى استفحالها الى حصول "التمرد" والى الفوضى العامة، وظهور صور مخيفة لهذه الدنيا.

فهؤلاء الجموع الغفيرة من شباب أوربا وأمريكا، الهائمة على وجهها فى الطرقات تحت اسماء الهيبيز " الخنافس والضفادع " وغيرها .. وجميعهم فى مطلع الشباب ، وقد تحولوا جميعا ذكورا واناثا الى قطعان من الحيوانات تأكل من حشائش الأرض ، وتنام مفترشة الأرض متغطية بالسماء ، لا عن حاجة ولا عن فقر ، ولكن عن فلسفة مريضة دخلت فى رؤوس هؤلاء الشباب فسختهم هذا المسخ .

كل هذه دعوات فاسدة لطبيعة الإنسان ، وتدمير عقله ، وقلبه ، وروحه وتحويله الى حيوان بلا عقل ، ولاقلب ولاروح ، إنها تتملق عواطف الشباب الجامحة ، وتدفع به إلى حيث تنادى غرائزه . ثم لاتلبث هذه الرغبات أن تدفع به إلى الهاوية .